

كان، وقد لقيت فيها من الشر كل ما لقيت، وقد واجهت فيها الموت، وقد عانيت فيها المرض، وقد تعرضت فيها للجنون أو لمثل الجنون، وقد تعرضت فيها لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والمحنة والخوف...؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك لا يكادون يشعرون بأني فارقتهم أو غبت عنهم، ولكن أنا أعلم من هذا كله ما أعلم، وأنا من أجل هذا أشعر بأني قد فارقتهم وقتاً طويلاً، أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن، وأطول مما يحسب الناس. إنهم قد نسوا رحلتي ونسوا عودتي وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون فيّ ولا يسألون عني، ولكني أنا لم أنس من هذا شيئاً. بل أنا أشعر شعوراً غريباً، أشعر أنني قد أخذت من أهل الدار فتاة دفنتها هناك في قرية بعيدة من قرى الريف تظنها هضبة من هذه الهضاب التي تلي الصحراء، ثم رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً، أخذت منهم أمانة الضاحكة في أكثر الوقت، الباسمة دائماً؛ أخذت منهم أمانة الغرّة الساذجة التي تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شيء، والتي لا ترى في الحياة إلا لعباً، والتي تخدم وكأنها تلعب، وتدرس كأنها تلعب، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب، لا تعرف الهم ولا تتمثله، ولا تعرف أن للحياة أثقلاً وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق، وابتسام لليل إذا أظلم، وابتسام لما يملأ النهار من نشاط، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام؛ أخذت منهم أمانة التي كانت تنشأ وتنمو كما تنشأ هذه الشجيرات في الحديقة وتنمو، فيها نضرة ولين، وفيها بهجة وجمال.

أخذت منهم أمانة هذه ففرقت نفسها تفريقاً، في الطريق حين كنت ذاهبة إلى الغرب، تركت بعضها في بيت العمدة الذي ضيّفنا، حين سمعت لحديث أختي وحين سمعت لحديث أولئك النساء، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التي كانت تتراءى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضي بنا الجملان في الطريق الصامتة وقد تقدم الليل وثقل، ثم تركت أكثرها في ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذي سال، ودفن مع الجثة التي دفنت وسوّي عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء، ثم تركت سائرنا نهباً لتلك العلة التي ذهبت بما بقي من نفسي، وإن أبقت على بقية ضئيلة من جسمي أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلاً قليلاً. أخذت منهم أمانة هذه وفرقتها على هذا النحو بين المدينة والقرية ثم رددت عليهم أمانة أخرى قد تشبه تلك في بعض ملامح الوجه، وقد تشبهها فيما بقي من اعتدال القامة، وقد تشبهها في طبيعة الصوت وبعض الحركات، ولكنها تخالفها بعد ذلك في كل شيء.